«أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر»

بين فصول هذا الكتاب جامعة سوغت أن يقرن بعضها ببعض ، وهى «مصرية» هؤلاء الأعلام ، التى نضحت فكرًا وسلوكًا يشى بهـذه «المصرية» ولاينكر عروبته وإسلامه ، بل كانت خير مزج تتوحد أشتاته وعناصره فى جوهر واحد .

ولعل الأستـاذ سامح كريم أدرك هذه الآصـرة ، حين عنون كتـابه «أعلام فى التاريخ الإسلامى فى مصر» ولم يقل «من» مصر ؛ لأن بعض هؤلاء الأعلام نبتوا فى تربة غـير مـصرية ، ولكن عطاءهـم احتـوته مصـر ، أو تأثرت به على أقل تقدير، وكان ثراها حاينًا على رفاتهم فى النهاية .

فى الكتاب كم هائل من الشخـصيات ، تتباين طبـاعهم ، وعطاءاتهم ، مابين قائد عسكرى ، وإمام زاهد ، وعالم يملأ طباق الأرض علمًا ، وناسكة تملى على الحياة سـلوكها الرفيع ، وشـهيد يضرب المثل للتـضحية والفـداء ، وقاض يرهب بعدله الحكام المتـخاذلين من صغار الحـاكمين ، بيد أن هذا الحـشد البالغ خـمسًا وسبعين شخصية يربطه خيط واحد ، هو الإيمان بالحياة المتجددة ، فكرًا جديدًا ، وموقفًا نبـيلاً ، وكأن المؤلف يقول لك : إن التاريخ فى حقيقـته يصنعه الأعلام ، الذين هم القادة للجمـاهير ، وهى وجهة نظر نجلها ونقـدرها ، حيث إن الأعلام تمثل العقل المدبر أو المحرك لهذا الطوفان البشرى الهائل .

وربما يظن أن هذا الحشد من الشـخصيات جار على التفـصيل أو العمق ، وهو ظن غيـر صحيح ، لأن التركـيز الذى اتسمت به الفـصول ، يغنى عن كثـير من الحشد والإطناب ، حيث وضع المؤلف يده علـى جوهر الفكرة ، التى يقصدها ، فيـغنى الإجمال هنا عن الإسهـاب مادام فى يد القارئ زبدة الموضـوع ، ومحض الفكرة ، وليس هذا نأيًا عـن التفـاصيل ، بل ربمـا كان الإجـمال أشق ، حـيث يقتضى تكثيفًا ، ووقتًا لايقتضيه الإسهاب ، وإن بدا هذا غريبًا لأول وهلة ، ولعل هذا التركيز اكتسـبه الأستاذ سامح كريم من مهنته صحفـيًا ، حيث المساحة المركزة

التي تقص الحواشى والأطراف ، وهى مفيدة بكل حال .

والمؤلف - وهو دارس للفلسفة والتصوف - يرى أنه لاشقاق بينهما ، وأن التصوف وإن بدا هروبًا من الحياة ظاهرًا . . إلا أنه يدرك فتنة الحياة ، فيعلو عليها زهادة ، وفى هذا درس جيد لبطلان الشعوذة والدجل الذى يلبس خرقة الصوفية وهى براء منه ، ودلل المؤلف بأمثلة عليا رجالاً ونساءً ، كانوا المثل الأعلى فى التصوف والزهادة ، وكانوا فى الوقت ذاته رسل هداية وحماسة لأمتهم ، وكأن التصوف فى حقيقته نوع من الكمون المؤقت لمواجهة الحياة باستعلاء وشمم ؛ ولمواجهة المواقف المستخذية فى العصور الخابية والمتردية فى التاريخ ، ونوع كذلك من استنفار الطاقات الإنسانية ، ولعل المؤلف احتكم إلى العقل ، الذى يربط بين كل هذه الشخصيات الضخمة التى تناولها ، ليؤكد أن التصوف غير مناف للعقل، ولا للفكر السليم .

وفى الكتاب شخصيات يسمع القراء عنها ، ولايعرفون من تاريخها إلا شذرات، بيد أن المولف تمكن أن يكشف كثيرًا عن هذه الشخصيات ، ومراجعه فى هذا الصدد حقيقة بكل تقدير ؛ حيث استطاع أن يلتقط منها مايكفى لرسم صورة محكمة ومضيئة .

وإذا كان هناك جامع شخصى بين هؤلاء الأعلام فربما كان «الأريحية» لا «المنفعة» التى هى قوام بينها ، تلك «الأريحية» هى التى تقف وراء «أفكار للتجديد ومواقف للحياة» ؛ لأن الفذائية هى الباعث الأول وراءها ، والمؤلف الفاضل بنسب عريق من تلك الصفة ، ولا أريد أن أقصم ظهره - فهو أكرم علىَّ - بل إن معرفتى به الوثيقة ، تجعلنى فى حل من إطلاق هذه الصفة عليه .

وفى الكتاب مناقشات دقيقة للنساك والنحاة ، والمؤرخين والقادة ، والشهداء ، تدل على عارضة قوية ، ومنهج قويم، وتشى أيضًا بإعجاب وحب لايطمسان الموضوعية المتوخاة ، كما يشى هذا الاختيار برسالة موجهة للأمة ؛ حيث يرفع المؤلف أمامها هذه الصور الباذخة ، التى تجدد أعراقها ، وتسرى فى أوصالها دماء التجديد والتنوير .

قبل أن تنطفئ النار

مجموعة قصصية للأستاذ إبراهيم سعفان ، سبقتها مجموعة «القناع» ، وطائفة أخرى من البحوث النقدية واللغوية ، وكلها تخول لصاحبها مكانة متميزة فى عالم الكلمة ، صدقًا فى التجارب وإخلاصًا فى التعبير عنها ، والمؤلف فيما يبدو من ذلك النفر الذين لايعبأون بكمية الكتابة ، بل بكيفية الكتابة ، ولذا كان نتاجه القصصى قليلاً أو على الأقل المنشور منه ، فربما يكون فى خزانته نتاج لم ير النور بعد ، لكن المجموعة التى بين أيدينا تقفنا على نمط جيد من الكتابة القصصية .

تسع وعشرون قصة قصيرة فى صفحات قلائل ، تؤكد - فى رأينا - أن مفهوم القصة يتأبى أن يكون فى قفص واحد ، أو طريقة واحدة فى الخطة والمنهج ، وفى هذا درس جيد لطائفة من النقاد المدرسين ، الذين لايرون إلا بعين واحدة ، فإذا جاءت تقنية القصة خارج تلك العين ومساحة رؤيتها ضاقت «الرحمة» النقدية ، فأخرجتها من جنة القصة ، وغاب عن تلك العين أن النقد تابع للإبداع ، وأنه لابد له من العين الأخرى .

تحكم هذه المجموعة مايمكن تسميته «باللقطة» المصورة التى تسير الحدث - إن وجد - وتكتفى بالصورة أحيانًا كثيرة ، حين تنطق الصورة وحدها بكل شيء ، كما تحكمها أيضًا «شعرية» التعبير ، التى تجعلها قريبة من القصيدة فى كثافتها وتوترها الخلاق ، وأحيانًا تأتى هذه الشعرية فى العبارات الموزونة عروضيا ، دون وعى أو قصد من المؤلف ، ودون أن يلحقها قول أو طريقة كتابة بما يسمى الآن «قصيدة النثر» وكلام المؤلف فى الذروة فى هذا الإطار ، لكنه عارف حدود قوله ، وأنه لايخرج عن دائرة النثر .

تسرى فى المجموعة كذلك روح صدقية ، تشير وتلمح وتخلق لدى الملتقى إحساسًا - عاناه المؤلف - بالرؤيا الصوفية التى تذكرك بمواجيد الكبار من المتصوفة، فجاء كلامه برقيًا فى سطور قلائل ، إلا أنه انفجارى يومض ومضة

البرق ويشتعل ، وتمثل هذا فى لقطاته «لقاء - بعد الأوان - السوق» وفيه نفس من البسطامى الذى حرقه الشوق ، غير أن هذا الوجد الصوفى لايدع المؤلف بعيدًا عن قرارة الحياة ومجالدتها التى تتمثل فى لقطات جيدة عن «الغثيان - وصاح الديك - الخروج - نبض الجذور - ابتسامة ميت شهد موته» إلى آخر هذه المشاهد الاجتماعية والإنسانية ، ففى نبض الجذور - مثلاً - يعالج قضية التشبه بالغرب فى القشور ، واندفاع الشباب إلى تلك الهاوية ، ولايصحو إلا حين يمس أحد عِرض أخته هنا تنبض الجذور ، وتتمسك بأصالتها ، وفى «ابتسامة ميت شهد موته» تتعدد بؤر التأويل ، حتى يسقط جريحًا ينزف ، ويتشاغل المارة بالسبب الجارح أو القاتل هل هو السائق ، ومدى اللامبالاة التى تأخذ فى التيه وتلطخ أقدامها بدمه ، تاركة إياه ينزف، تلك رؤية يمكن أن تكون واقعًا فى المدن الكبرى، كما يمكن أن تكون مأساة الجرح العربى والإسلامى النازف فى أماكن كثيرة ، والمتفرجون يتركون الجرح ، يلوكون الكلام والتصريحات والخشية من المسئولية ، وربما تتعد التأويلات لترى أشياء أخرى فى هذه القصة وفى غيرها ، وفى صاح الديك تعالج التمرد المكتوم ، والغلظة والاستبداد فى تصرفات عمدة القرية ، وكلها تقف بيقظة من المؤلف بمشكلات أمته وبالعالم الإنسانى كله فى لقطات مركزة ، توحى دون أن تصرح ، وتجرح دون أن تقتل الأمل فى النفوس المتطلعة إليه وتتمثل كذلك فى المجموعة قدرة على استلهام التراث العربى القديم والإتكاء عليه ، وتفجيره بطاقات خصبة من الإيحاء والتأويل . . ففى ذبابة يرصد المؤلف معلقًا الأنفاس حول مصير ذبابة تحاصر الكاتب فلايجد عنها حولاً سوى أن يحبسها فى محبرته بعد معاناة شديدة ، وتذكرنا محاولات المؤلف بما حكاه الجاحظ عن عبدالله بن سوار قاضى البصرة .

ولغة الأستاذ إبراهيم سعفان لغة رجل يقصد إلى القول ، فعبارته لاتزيّد فيها ولافضول ، بل إنه يحذف حروف العطف قاصدًا إلى الأداء المسرع والإيجاز المحكم ، لأن المؤلف يحترم قارئه فيقدم إليه شيئًا راقيًا يقرأه القاصى والدانى ؛ لأنه الباقى ، حيث تخنق العامية نفسها بقيود الزمان والمكان .

شعراء عمانيون

أن تضاف إلى المكتبة العمانية دراسة جادة تؤرخ لشعراء عمان جهد كريم ؛ خاصة أن تلك الدراسة تفرغ لها شاعر عمانى ذو صوت مسموع فى عالم الشعر ، ومارس الكتابة التاريخية والنقدية بذهن متفتح ، وقلم صناع .

وقد خشيت على الشاعر وهو يسير فى غابة غبياء لم يمهدها كثرة الطراق ، فسلك الطريق عارفًا بواعثه وغاياته ، مستحصد المقدرة ، مكتمل الأدوات . التأريخ للأدب العمانى عسير ، فالصور فيه غير واضحة ، ومن ثم أشفقت على سعيد الصقلاوى وهو يجتاز هذه العوائق ، مذللاً إيها ، يرفده ذوق دؤوب ، ومنهج ميسر فى التناول ، ربما نختلف حوله . . لكنه يؤدى الغرض المراد له .

ثمة طريقة تقليدية لهذا التأريخ ، ربما كان خير ممثل لها الشيخ الخصيبى فى كتابه «شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان» ، ولم يدع مؤلفه شيئًا غير مايشى به عنوان كتابه ، فهو سجل لأسماء الشعراء فى منظومة كمنظومات العلوم ، مع تعريف موجز بالشاعر ونماذج يسيرة منه ، لاتؤدى إلا إلى معرفة مخدجة بصاحبها ، ولعل كتاب «الشعر العمانى» للدكتور على عبدالخالق ، وهو رسالة ماجستير فيما أظن ، هو محاولة غير عمانية للتأريخ لهذا الشعر . . إلا أن الكتاب وقد اتسع مجال الدرس تاريخيًا - لم يأت منهجه دقيقًا ، واكتفى بأن يحطب فى حبال القدماء . متقيلاً لطريقتهم ، وربما كان من المناسب أن نشير إلى دراسات أخرى ، قدمها عبدالله الطائى العمانى مقالات صحفية وأحاديث إذاعية ، تؤدى الغرض المرسوم لها فى الصحيفة السيارة والأثير .

وتأتى دراسات القصاص المعروف يوسف الشارونى محاولة نقدية جادة للتأريخ لهذا الأدب - جزئيًا - شعرًا ونثرًا ، ثم دراسة الناقد الدكتور أحمد درويش وهى أبعد مرمى ؛ إذ هى «بانوراما» ، يرفدها منهج دقيق ، وأحكام نقدية صائبة فى مجملها ، ولكاتب هذه السطور دراسة عن «الشعر العمانى المعاصر» أثارت جدلاً

واسعًا ، تحرى فيها صاحبها الموضوعية كما ارتآها دون قطع ظهور الناس بالمجاملة، وهى خلة شائعة فى معظم الدراسات التى تكتب عن الخليج عمومًا من غير أبنائه ؛ لأن عيون الدارسين تتجه صوب الرضا والسخط ، ولم أشأ أن أقع فيما نعيته على الناس .

كتاب «شعراء عمانيون» لسعيد الصقلاوى نشر منجمًا فى صحف عمان ، وطبيعة المقال فى صحيفة سيارة أن تخاطب القارئ العادى ومتوسط الثقافة والقارئ المتخصص ؛ ولذلك حاول المؤلف أن يوازى بين كل هذه الأشياء فكان الصواب وجهته فى جل مانشره ، ويبدو أنه نشر مقالاته فى كتابه هذا ، ربما بتسلسل نشرها فى الصحيفة دون مراعاة للترتيب التاريخى .

انتظم الكتاب مقدمة عن الشعر العمانى بداياته المعروفة والظروف المؤثرة فيه ، وقد جاءت موجزة جدًا ، وودت أنها طالت واستوفت الحقب التاريخية التى ينتظرها القارئ من المؤلف ، وفى وسعه أن يفعل ذلك فى الطبعات القادمة .

ثم جاءت التراجم للشعراء الذين وقع عليهم اختيار الشاعر ، ولذلك جاء عنوان الكتاب منكرًا ، حاول أن يجمع واحداً وثلاثين شاعرًا فى نسق واحد ، من بينها أسماء ربما تغيب حتى على المتخصص ، لأن الشعر العمانى لاتزال مصادره نزرة بين يدى الناس ، ومن بين هؤلاء الشعراء أيضًا أسماء معروفة ، يتواتر الحديث بشأنها لدى جمهرة المثقفين وغيرهم ، وبعض الشعراء لم يعرفوا بالشعر بل قالوه إحماضًا على طريقة العلماء والفقهاء ، ويعجب المرء لهذه الكثرة من الشعراء العمانيين - مع اتساع المصطلح ليشمل النظامين ، وما أكثرهم فى عمان ، لأن النظم وجد لحفظ المعارف الإنسانية فى مجتمع يعتمد على السماع وتقييد المعارف على الطريقة القديمة ، لكن دخول هؤلاء الشعراء فى عالم الشعر محفوف بالمحاذير .

ولقد قرأت للمؤلف بعض الدراسات عن شعراء عمانيين آخرين غير الواردين فى مؤلفه ، ولعله راجع نفسه فلم يشأ أن يزجهم فى كتابه ، ربما لأن العمانية غير واضحة تمامًا . . إلا أنهم ينتسبون للأزد فى عمان مثلاً ، ولذلك أرى أن بعض

الشعراء ممن حواهم كتابه على أنهم من عمـان ينبغى أن يعاد النظر فيهم ؛ خاصة وأن المولد وحده ، أو قبيلة الشاعر العمانية لاتكفى لجعله عمانيًا ، إذا ولد الشاعر فى البصرة مـثلاً أو فى مصر أو فى الأندلس ، وعاش فى تلك البيـئات ونضحت فى شعره فلا يمكن - فيمـا أرى - قسره على أن يكون من بلد المولد ، وقد كان ابن حمديس الصقلى من سرقسـوسه فى صقلية ، إلا أنه أزدى من جنوب الجزيرة . . لكن الرجل كان صقليًا أندلسيًا ، ومثله كثيرون ممن ولدوا فى بغداد أو البصرة أو غيرهمـا من الأماكن ، ولم ير عمان ولم تعش فى شـعره ، والعدد الوارد من طراز أولئك الشعراء قليلون .

أحـسن المؤلف صنعًـا بالتـأريخ لشـعـراء من عـمـان ، يجـهلهم حـتى أهل الاختصاص من غـير أبناء عمان ، فإذا تجاوزنا الأسمـاء المعروفة مثل ابن دريد ، والوزير المهـلبى ، ونفطويـه ، والخليل ، وثابت قـطنة ، وكـعـب بن مـعـدان الأشقرى، والمبرد ، لصادفتنا أسـماء ، ربما تطرق أسماع بعض الناس لأول مرة ، وهذا جهد يحمد للمؤلف .

جاء التأريخ سـجلاً حياتيًا دقيقًـا للشاعر وظروفه وموضـوعات شعره ، ورأى المؤلف فيه مستعـينًا بمصادره الدقيقة والمستوعبة مسـتخدمًا إياها فى إتقان ، إلا أن جانب التسجيل وإيراد المعلومات طغى على جانب النقد فى بعض المواطن القليلة.

لا أدرى لِمَ لَمْ يلتزم المؤلف بالتسلسل التاريخى ، وقد يكون مفيدًا جدًا لرصد حركة التطور فى هذا الشعر ، والوقوف على أسباب التطور أو الانحدار ، ويسلم القارئ من شـاعر إلى شاعـر ، ربما كان للسابق فضـل تأثير على اللاحق ، وهذا يحققه التسلسل التاريخى .

كم وددت أن تلحق بالكتاب مـختارات للشعراء فى نهـاية الكتاب أو فى نهاية كل دراسة . . صـحيح أن المؤلف أورد بعض الأبيـات معلقًا علـيها أو مـدللاً بها على قضية تاريخية أو نقدية ، لكننى كنت أطمع أن يكون كتابه دراسة ومختارات من ديوان الشعر العمانى .

كمـا لاحظت خلو الكتـاب من الشاعـرة العمانـية ، والتأريخ لـها ، هل لأن

الدجاجـة إذا صاحت كالديك ذبحت ؟ لا أظن ، بدليل أن نسـاء سقطرى أرسلن قصـيدة إلى الإمام الصلت بن مـالك الخروصى على وزن قـصيدة أبى تمام البـائية ورويها ، وهى أبيات جيدة ، واستصراخ كما حدث فى وقعة عمورية . كنت أود أن أعرف المرأة العمانية شاعرة .

إلا أن الكتاب فى مجمله يسـتحق التحية ، ويستحق مؤلفـه التهنئة ، لأنه قدم دراسة فيـها خطوات فساح ، ويـزيدها قدرًا أن كاتبهـا شاعر مرموق مـن شعراء الصف الأول فى عمان ، وربما كان فى رأيى أهم شاعر عـمانى معاصر من الجيل المثقف ، الذى يجدد فى اعتدال وتوازن محـمود ، ونحن فى انتظار موسوعته عن الشعر العمانى فى كل عصوره ، وهو جهد شاق وعسير إلا أن المؤلف أهل له.

obeikandl.com

عن السرقات الأدبية

من حق الأساتذة الكبار علينا التجلة والتوقير ، لكن ليس من حقهم التطويب والتقديس ، ولامن حق الآخرين المطالبة بذلك ، مادام الدرس المنصف هو خطة الباحث الذى يتوخى الحقيقة ، ولايعنيه بعد ذلك رضا أحد أو إسخاطه ، وكان هذا هو ديدن هؤلاء الأساتذة الكبار فى تناول الرجال ، ونحن للأسف لم نفهم الدرس منهم جيدًا ، وربما كان خلافهم هو القاعدة قبل الاتفاق ، حيث كانوا يدركون أن ذلك الخلاف أمارة حياة ، وأن الاتفاق - إن كان - دلالة جمود ، خاصة إذا كان هذا الاتفاق يدارى أربًا قريبًا أو بعيدًا ، لاصلة له بالدرس الموضوعى .

وتجلة الأساتذة تسمح بمناقشتهم ومناقضتهم فى الوقت ذاته ، وتلك المناقضة وبيان الرأى فيهم لاتعنى التهوين من دورهم الذى أدوه ، ولايزالون يؤدونه بعد رحيلهم . ومن تمام هذه التجلة ألاينسب إليهم ماليس لهم ، عرفانًا بحقهم وحق تاريخ الأدب والفكر فى الوقت ذاته ، وكان هؤلاء الأساتذة يقومون بهذا الدور ، وكان القدامى قبلهم يؤدون حق العلم عليهم ، حتى إنهم أفردوا بابًا خاصًا فى البلاغة العربية باسم «السرقات الأدبية» ، أما جيلنا فيدفن رأسه فى الرمال ، بهذه الحجة المتخاذلة وماذاك إلا من سيطرة الرأى الواحد ، والرضا بالمتاح ولو كان فى الدرك الأسفل من الإنسانية الرحبة .

حسن أن قام نقاد «المازنى» بتقصى ماله وما أخذه بحثًا عن أصالته شاعرًا وقصاصًا وناقدًا ومترجمًا ، وتجاوب العالم العربى المثقف بأصداء هذه الدراسات مابين بغداد وحلب والقاهرة ، وربما كان أول من فجر هذه القضية صديقه الأثير عبدالرحمن شكرى ، الذى عرف أن من حق الصداقة ألايستر ماينبغى أن يكشف، فواجه صديقه بسرقاته من الشعر الأوروبى ، وعدد نماذج هذا الأخذ ، مدركًا أن الاتجاه المجدد سوف يؤخذ كله بجريرة فرد منه ، وقامت معركة بين الصديقين

العزيزين ، استخدمت فيها أسلحة متنوعة ، كان الرد عنيفًا من المازنى - مع دماثته - الذى اتهم صديقه بالجنون وأفرد له مقالين لاذعين فى كتاب «الديوان فى الأدب والنقد» ، وظلت المعركة مشتعلة سنوات متعددة ، حاول العقاد إزاءها رأب الصدع ولم الشعث ، وأفلح مرة ، وأخفق مرات نظرًا لأطراف كثيرة متصارعة ، حاولت استغلال ماحدث فوسعت الهوة بين الأصدقاء ، واتسعت كذلك الدراسات التى تناولت هذه القضية ، نظرًا لحيوية الفكر وخصوبته ، فكتب فيها الدكتور محمد أبو الأنوار كتابًا مفردًا فى تاريخ المعارك الأدبية ، وخص هذه المسألة ببيان شاف، ربما كان أهم ماكتب فى هذا الصدد نظرًا لرجوعه إلى دوريات هذه الفترة الناهضة ، وكتب فيها الباحث الهندى محمد أشرف رسالته للدكتوراة ، وعرض للقصائد الإنجليزية موضوع الأخذ ولقصائد المازنى ، فى دراسة تحليلية جيدة ، وعرض لها أيضًا الأستاذ على أدهم ، وهو عضو مؤسس فى جماعة الديوان إن صح هذا التعبير ، وتناولتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، وإن كانت ركزت على القصة والمسرح فى إبراهيم الكاتب ، وغريزة المرأة ، وأتت بالنصوص الأوروبية ونصوص المازنى ، ولم يتعد الأمر بضع صفحات وناقشت ردود المازنى، بمعابثة الذاكرة له - وهو أمر معروف عنه ، ومرضه كذلك بالنورستانيا - وإن كانت لم تأخذ برأيه جملة ، حيث إن الوعى كان حاضرًا فى نقل الأسماء العربية بدلاً من الأسماء الأوروبية فى النص الأصلى ، وعرض كاتب هذه السطور فى كتابه «المازنى شاعرًا» لهذه القضية ، وانتهى كما انتهى النقاد السابقون إلى دراسة المسألة فى حيزها ، ولم تتجاوز الطعن فى أصالة المازنى ، وظل الرائد المجدد فى عالم النقد والمقال ، والترجمة ، والشعر ، والرواية ، وأنصف الدرس الأكاديمى المازنى بعد رحيله كما لم ينصفه قبله ، والمسألة لاتزال قيد الدرس فربما يخرج كاتب بعد ، يرى غير مارأى السابقون ، ويكتشف مالم يكتشفوه ، ومن حسن الحظ أن المازنى ووجه فى حياته بمثل هذه الاتهامات ورد عليها بنفسه ، وكسب تاريخ الأدب فصلاً جديدًا يضاف إلى فصوله ، يزيدها حيوية وحماسة ، لأن البئر الراكدة يأسن ماؤها كما يراد لها الآن .

وكان الفصل الثانى سنة ١٩٦٢ ، وكانت الحياة الأدبية والفكرية مازالت تتنسم ذلك العبق القديم من الحيوية ، فطالعنا العقاد بمقالاته فى الأخبار حين سأله أحد

القراء عن كتاب «وحدة المعرفة» للدكتور محمد كامل حسين ، فألمح فى رقة إلى أن المؤلف أولى بالإجابة ، فما كان منه إلا أن طعن فى معرفة العقاد بالفلسفة ، فإذا به يكتب مقالين لاذعين ، ينبه إلى أن هذا الكتاب «وحدة المعرفة» منقول من كتاب «المكان والزمان والربوبية» لصمويل ألكسندر المنشور سنة ١٩٣٤ ، وقد لخص العقاد مذهبه من قبل فى كتابه «الله» سنة ١٩٤٦ ، وأنكر الدكتور حسين معرفته بهذا الاسم ، وأن دائرة المعارف البريطانية خلو منه ، ولكن العقاد يؤيد بالنصوص القاطعة من الكتابين نقل الأفكار العربية من الكتاب الإنجليزى ، وينقل أيضًا ماكتبته دائرة المعارف المذكورة عنه ، فى طبعة لاحقة ، لأن طبعة الدكتور المذكورة كانت قد نشرت ، وألكسندر لازال على قيد الحياة .

ونعتقد أن الدرس الفكرى قد أفاد من هذه المعرفة ، وربما تكون دراسات أكاديمية قد قامت ولعلها تكون ، ومع ذلك مازال الدكتور كامل حسين فى صدارة كتابنا .

أما الفصل الأخير فى هذا المقال ، وليس الأخير فى رصد الآخذين أفكار غيرهم ، فهو الفصل الخاص بالدكتور محمد مندور فى كتابه «نماذج بشرية» ، وقد تناوله أستاذنا الدكتور الطاهر مكى فى كتابه القيم «الأدب المقارن» ص٢٩ وما بعدها ، وأولى بنا أن ننقل بعض ماقاله بلغته هو : «فقد سطا الناقد الكبير الدكتور محمد مندور فى كتابه «نماذج بشرية» على كتاب (النماذج العالمية فى الأدب الفرنسى والعالمى) للكاتب الفرنسى جان كالفيه ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، اثنان منها يحتويان على نماذج من الأدب الفرنسى ، والثالث على نماذج من الأدب الإيطالى والإسبانى وغيرهما ، وطبع الكتاب فى باريس عدة مرات آخرها فيما أعلم عام ١٩٦٣-١٩٦٤ ، والنموذج الوحيد الذى أضافه الدكتور مندور لايوجد فى الكتاب الفرنسى هو (إبراهيم الكاتب) للمازنى ، أما البقية فمأخوذة كلها من المؤلف الفرنسى نماذج وموضوعات ومنهجًا ، وحتى النصوص التى يعزز بها الدكتور مندور شرحه وفكرته هى النصوص نفسها التى اختارها الأديب الفرنسى للتدليل على تحليله ، وبعيدًا عن التصور أن يجئ هذا صدفة أو عفوًا أو من قبيل توارد الخواطر ، وأدعى للشك أيضًا أن الدكتور مندور لم يشر إلى كتاب المؤلف الفرنسى ولابكلمة واحدة .

وبعيدًا عن التصور أيضًا أن يتابع الدكتور مكى تفاصيل هذه القضية ، فيخرج عن منهج كتابه فى أصول الأدب المقارن وتطوره ومناهجه ، وإن كان من غير البعيد أن يتلقف الفكرة أساتذة الأدب الفرنسى أو المقارن العارفون بالفرنسية ، فيخرج الموضوع رسالة صغيرة فى تطبيقات الأدب المقارن ، لكنها المجاملات التى تحكم حياتنا الأدبية ، أو تطويب الأساتذة الكبار ، وما كانوا يريدون لنا هذا ، ولانريده لأنفسنا .

بيد أن مسألة الأخذ هذه عالجها آخرون غير الدكتور مكى ، فالكاتب عبدالمطلب صالح عرض لها فى مقال عنوانه : «هل الدكتور مندور هو المؤلف الحقيقى لكتاب نماذج بشرية» . فى مجلة الأقلام ، يناير ١٩٦٧ - ص٤٤ - ٥٠ ، وعرضت لها على استحياء الدكتورة ، ماريا خيسوس بيجيرا ، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة مدريد ، فى مقالها «دون كيخوتى فى النقد المصرى» والمنشور فى مجلة ALMENARA مجلد ٧ - ٨ صيف ١٩٧٥ ، والتى تصدرها جامعة مدريد المستقلة ؛ حيث أشارت إلى الانتقادات الصارخة لهذا الكتاب ، وأنه مأخوذ عن الوسائط الفرنسية ، وألحت على مقال «دون كيخوتى» بصفة خاصة وأنه مأخوذ عن الفرنسية ، وقد ترجمته الأستاذة ، وعرضت للنقاد المصريين الذين تناولوا نموذج دون كيخوتى مثل محمود أمين العالم ، ورجاء النقاش ، وحسين مؤنس ، ومندور بطبيعة الحال .

الموضوع يغرى بالتناول ، ونعجب للصمت المطبق من النقاد ، خاصة العارفين بالفرنسية ، الدكتور مندور «على العين والرأس» لكن الحقيقة على العين والرأس قبله وقبل الناس جميعًا ، وماذا علينا من كشف المستور لئلا نكون شياطين خرسًا، وخير أن يخرج أساتذة الأدب الفرنسى عن صمتهم وكذلك العارفون بالقضية من النقاد الذين نعرفهم ، ونعرف أنهم عارفون ، وبعضهم عنده الأصل الفرنسى ، تقديرًا منا للدكتور مندور ، ونحن أعرف بحقيقته وقيمته ، ودراسات الرجل وجهوده هو وغيره ممن سبق لايطعن فيها أن نرد بعض البضاعة إلى أهليها ، بدلاً من أن نبطل بابًا أساسيًا فى الأدب المقارن ، ومن أن نقول : حقوق الطبع غير محفوظة للمؤلف !!

نحو من النحو

تكثر هذه الأيام كما كثر قديمًا الشكوى من النحو ، غير أنها فى أيامنا تحاول تسويغ العجز ، والقعود عن طلب العلم والمعرفة ، أما قديمًا فكانوا يشكون من تشقيقات المسائل النحوية والصرفية . أو مايمكن تسميه نحو الصنعة لانحو اللغة والطبع ، وما رأينا الأجانب يجأرون بمثل هذه الشكاة ، بل يحاولون التعمق فى قضايا تصريف الأفعال وهو باب عسير يعرفه من ولجه ، أو فى الإعراب فى اللاتينية ، وهو صعب على أبناء الأمم الأخرى من غير العرق اللاتينى ، ولو بذل الشاكون من النحو الوقت الذى ينفقونه فى الشكوى لغدا الطريق ذلولاً ميسرًا ، ومن عجب أن الذين تعلموا النحو أيام الدراسة فى الكتب القديمة ، وأفادهم هذا التعلم ، وأبان عن عقولهم ، وحل عقدة لغتهم ، ينضمون إلى هؤلاء الشاكين ، ويسوغون الشكوى بمساعدة النحو نفسه الذى هو محل الشكاية ، ولولا هذه اليد التى أسداها إليهم النحو لصدئت آلتهم فى الدفاع .

النحو علم مظلوم ، والشاكون منه كذلك إذا كانوا حسنى النية ، لأن النحو العربى منطق من المنطق ، وقواعده سهلة لاتعقيد فيها إذا أحسن القيام على تعلمه وتعليمه ، ولعلنا إذا أخذناه من كتب الأدب ونصوصه الجيدة لأقام بذلك الحجة له، تسبقها مرحلة حفظ القرآن الكريم ؛ لأنه ثابت من مشاهدة الواقع أن حفظه يقوِّم الألسنة ، فالطالب الذى يحفظ قوله تعالى؛ وكان الله غفورًا رحيمًا ، يدرك بالبداهة أن ماجاء بعد كان يكون مرفوعًا ، ومابعده منصوبًا ، فإذا قرأ شعرًا أو نثرًا طبق بالبداهة هذه المعرفة فلايخطئ .

أما تعليم النحو بأمثلة مما يدور على ألسنة الناس مثل جاء محمد ، وذاكر الطالب ، فإنها لاتقيم له لسانًا ، ولاتزيده بيانًا ، صحيح أنها ميزان للكلام ، والقاعدة ، لكن المثال لاقيمة له ولايفيد نطقًا .

صحيح أننا فى إطار التعلم للناشئة نحاول أن نتجنب التعقيد ما أمكن ، وأن

نبتعد عن الاحتمالات والحجة النحوية الواهية التى رأى الشاعر الظريف قديمًا أن خصر صاحبته أوهى من حجة نحوى ، لكن ليس معنى ذلك أن نبعده عن هذه الاحتمالات ؛ لأنها إعانة للذهن أن ينشط ، وأن يقوى ، وتلك مرحلة تالية ، ومع ذلك فرحم الله أيامًا كان الناشئ فيها يدرس قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ، وشرح ابن عقيل ، وغيرهما دون أن تكون منه هذه الشكوى ، التى هى فى رأينا دليل على المطالبة بالحقوق قبل القيام بالواجبات ، إن الناس الآن فى أغلبهم إلا من رحم ربك ديدنهم طلب الحقوق لارعاية الواجب ومن ثم تكون الشكاة جهيرة ، ولتسويغ الكسل والعجز ، وأن العيب فى النحو وليس العيب فينا .

لايمكن فهم الأدب ونقده إلا من خلال النحو والصرف والعروض ، والناقد الذى لايتذرع بهذه الذرائع لايمكنه أن يقول لنا كلامًا مفيدًا يحسن السكوت عليه، كما يقول سادتنا النحاة ؛ حيث تأتى مرحلة جماليات النص بعد سلامته ، وأن هذه السلامة تنفخ فى أعراقه روح الجمال . وأن السلامة نفسها باب من أبواب الجمال والإحساس به .

ومن هذه البابة يقع العبء الأكبر على أساتذة النحو حين نطلب إليهم أن يقدموا لنا النحو ، من خلال نصوص جميلة ورائعة ، من تراثنا العربى العظيم شعرًا ونثرًا ، وأن ندرك معهم أن بيتًا جيدًا من الشعر نعربه لايمكن أن يتفلت من الذاكرة ، وأن القاعدة النحوية تثب وتتأطر من خلاله ولابأس أن نقف من بعيد أو من قريب على الصنعة النحوية التى أسهمت فى بناء جماليات البيت .

وقد أدرك ابن هشام المصرى قديمًا هذه الوسيلة ، وتذرع بها ، وإن كان لم يلج باب الجماليات ، لعله كان يخاطب أناسًا لم تفسد ملكتهم بعد فيدركون هذا الجمال ، وإلا فما باله يقع على كثير من الأبيات الجميلة هى الشواهد أو أبيات الاستئناس بعد زمن الشواهد ، إن لم يكن راقى الذوق ، ومن يخاطبهم له قريب من مثل ذوقه ، وقد رزق الله هذه الأبيات برجل أخلص فى جهده شارحًا وناسبًا لها إلى قائلها ، ومعربًا لها وذاكرًا المناسبة ، هو الشيخ محيى الدين عبدالحميد

الذى أسدى إلى طلاب النحو واللغة نحـوًا من النحو الراقى الذى يخاطب الذوق والعقل .

وربما يكون أفضل من الشواهد المفردة أن نقدم النحو من خلال أبيات مجتمعة، تقدم تجربة شعرية غنية وإنسانيـة ، وتقدم أيضًا تجربة نحوية غنية ولايعنى ذلك أن نضرب صفحًا عن كتب النحو بمشكلاتها ولغتها القديمة ، وطريقتها فى الاحتجاج والجدل ، فإن فى تركها ضياعًا لعلم نافع مـفيد ليس لنا عربًا بل للإنسانية كلها ، وإن كثـيرين من أبـناء جيلى والأجـيال السـابقة عليـه تمكنوا من العربيـة من هذه السبيل.

ولعل فى أبيات الشـواهد هذه التى نوردها مثالاً ، مـايصلح أن يكون ذريعة أن نقرأ النحو ، وأن ننحو هذا النحو من الذوق والفهم :

لاطيـب للعيـش مادامـت منغصة لذاتـه بادكـار المـوت والهـرم

وقولى كلـما جـشأت وجاشـت مكـانك تحمـدى أو تسـتريـحى

لـولا اصطبار لأودى كـل ذى مقة لمـا استقلـت مطاياهـن للظـعن

أيـا راكبًـا إمـا عـرضت فبلغن ندامـاى مـن نجـران أن لاتلاقيـا

شفافية الشعر

طائفة من الدراسات المركزة ، كتبها د. يوسف نوفل ، وهو رجل سلخ من عمره سنين عددا فى الإبداع والنقد ، يعرف عذاب الإبداع ، معرفته لمعاناة النقد، وهذه الدراسات - وإن تباعدت زمنًا - مكتوبة بروح واحدة ، حيث وقفت لدى النص «تستشفه» ، محاولة أن تقتنص من شوارده مايعز اقتناصه ، متذرعة إليه بشتى المناحى النقدية ، وإن كانت تغلِّب البداية من النص لتنتهى إليه .

وهذا المنهج على استقامته يغفل مناهج أخرى ، نحن نراها أولى بأن تطل برأسها حين تضئ جوانب تعسر على «قراءة» النص وحده ، ونعنى به جانب مبدع النص ؛ لأنه منه وإليه يئول ، ومحاولة «موته» مقضى عليها ، لأنه نص ابداعى ذاتى أولاً وأخيرًا .

حاول د. يوسف نوفل أن يقدم منهجه فى كلمات موجزات ، أشبه بالعناوين، أو الشفرات التى تفتح المغاليق ، وتناولت من خلاله - دون تلفيق ،كما يحترز - مجموعة من النصوص قديمة وحديثة ربما يغرب الناقد فى معالجتها أحيانًا ، لكن الخط واضح ، خاصة أن يوسف نوفل ليس من تلك الطائفة من النقاد الذين «يضربون الرمل» ، بل إنه يشتط فى اختلافه معهم ، محاولاً أن يكون واضحًا ماوسعه ذلك ، وإن كان قد ركب مركبهم بعض الشئ حين يستخدم مثلاً «الزمكانية» ، ونراها وأمثالها من غرائب القوم ، يريد أن يعربه فيعجمه ، ويستشهد المؤلف بأبيات من الشعر القديم والحديث ، وبالشعر الحر ، لكنه ربما يعود إلى ذاكرته ومحفوظه القديم ، كما حدث فى كلام المتنبى وابن زيدون ، ويحتاج إلى مراجعة .

درس الناقد نصوصًا لفاروق شوشة فى أكثر من موضع ، وتبين فى دراسته شواهد تذوقه، ودرس رامى ، ومحمد إبراهيم أبو سنة ، وأحمد تيمور وجمهرة أخرى ، وربما تتفق مع الناقد أو تختلف معه ، لكنك لاتنكر إخلاصه فى

الدرس، وتحليله للنصوص ، واجتهاده فى تذوقهـا ، ووقوفه لدى المعجم الشعرى فى كثـير من دراساته ، وقد راق لـنا أن نقف مليًا عند دراستـه لقصيدة «القـصر المهجور» لأحـمد رامى ، مطبقًا عليـها عنصرى المكان والزمان ، ومـحللاً عناصر الجمال فيها ، مستخدمًا الإحصاءات المستوعبة .

لكننا حين نحمـد للدكتور يوسف مثل هذا المنهج نخـتلف معه ، خاصة فـيما يتعلق بمفهـوم الشعر فهو مع «فعل الكتـابة» دون تحديد لجنسها ، ولا لطبيـعتها ، لاعجزًا منه ، بل إيمانًا بتداخل المفاهيم ، نفهم مثلاً القصيدة ، والقصيدة الحرة ، لكن أن يدخل فى عنوان كتـابه مايسمى غلطـاً بقصيدة النثـر ، فهنا يتسع مـجال الاختلاف دون أن نقسم البلد إلى نصفين ، فمـا ذكره عن «قصيدة النثر» بعيد عن عنوان كتابه ، ونرجو ألايخشى الناقد من اتهـامه بالتخلف ، وغير ذلك من التهم الجاهزة المرسلة ، مؤمنًا معنا أن رفضها - شعرًا - هو قمة التقدم حين نحتكم إلى قاعدة أو نظام ، ولن يغرنا مطلقًا ما استشهد به من نماذجها ، أو من نماذج غامضة تلبس أقنعة غريبة ؛ حيث ينبغى للشعر أن يكون شعراً أولاً قبل هذه الأقنعة .

وأرانى لم أنس البلاغة العـربية حين أرى فى «استشفـاف» صعوبة فى النطق ، وأنا رجل سليم جـهاز النطق ودرسـت التجـويد ، ربما أسيـغهـا داخل النص فى الكتاب لكن فى العنوان تذكرنى بقول امرئ القيس «مستشزرات» .

تحية للكتاب وصاحبه برغم هذه المداعبات ، لأنها من التحيات الزكيات .

يحيا النحو الواضح، ويحيا سيبويه ١-٢

البحث عن الحقوق قبل أداء الواجبات شأن الناس - دائمًا - فى الأزمنة الخابية الكليلة ، ولو بذلوا بعض الجهود بحثًا عن الواجب ، وصرفوا إليه شيئًا من همهم لتبدل الخلق جملة ، وما ذلك بعزيز على الهمم المشحوذة ، والنخوة السارية فى الأعصاب قبل أن تكون برامج ومقررات .

منذ ربع قرن أو أشف ، كنت حديث عهد باللغة الإسبانية ، ولم نكن نفرق كثيرًا بين الباء الخفيفة والثقيلة ، وفى الإسبانية ثلاث باءات : باء باريس ، وباء برشلونة ، وباء بلنسية ، وأخطأت مع بائع الخبز Pan ، فنطقتها مخففة ، فقال لى : ليس عندى ، وهو لايبيع غيره ، فإذا بالرجل حين أشرت إليه على بضاعته نطق الكلمة أكثر من مرة معنفًا ، وشيعنى بجملة فيها إقذاع لم أفطن إليها فى حينها ، وما كان ذاك إلا حرصًا وغيرة على اللغة من رجل ليس عضوًا فى المجمع الملكى للغة ، وإنما هو من غمار الناس !!

وإنما نسوق هذا المثل لنقول : إننا ضيعنا لغتنا حين فقدنا النخوة ، واكتفينا بالبرامج والمؤتمرات ، والشكوى الضارعة الذليلة ، كيف لا ، ؟ وكل حياتنا أصابها الفقد ، وضاعت ملامحها وماكانت اللغة إلا أحد المظاهر ، التى نشيعها بلطم الخدود وشق الجيوب ، إذا بقيت خدود وجيوب !!

أصدر الأستاذ شريف الشوباشى كتابًا ناعيًا حزينًا محزنًا ، والرجل حسن النية - أحسب - ، وحسبه أنه نسل من أسرة تسرى العربية فيها سريان الدم ، ووالده لايزال موضوع رسائل جامعية فى إبداعه ، ولو رجع شريف إلى لغة كتابه لرجع عن أحكامه ؛ لأن حججه داحضة بلغته الواضحة المشرقة ، وأن العيب ليس فى قواعد هذه اللغة وإنما فى غيبة الوعى بها ، أسلوب تعليم وتثقيف ، ولغة الكتاب مع إشراقها فيها بعض المخالفات النحوية ، التى لانظنه يقصدها نكاية فى سيبويه وشيعته، وشريف من تلك الشيعة ، ونحسب أن سيبويه يخرج لصاحبنا لسانه من

تحت أطباق الثرى ، وكأنه يقول له : كيف تدعى سقوطى ، وأنا آخذ بيدك؟!

لقد قدم سيبويه جملة واحدة ، فيها بيان قلَّ أن تجد له نظيراً فى كلام المبينين ، يقول فى أول كتابه : «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ومايكون ولم يقع ، وماهو كائن لاينقطع» ، فهذا كلام يراد لصاحبه أن يسقط لتحيا العربية ، وهى ليست كائنًا منفصلاً عن حياة أصحابها ، إلا إذا برئنا من النسب إليها ، لا لشئ إلا إرادة من بعضنا أن تكون مثل لغة أخرى ، ونعوذ بالله من الخذلان !! مع العلم أن اللغات الأخرى لاتعرى من القواعد ، وربما كان فى الإسبانية من تصريف الأفعال ماتنوء به الذواكر ، دون أن نريد لأصحابها أن تسقط وفيها Subjuntivo وهو من أعسر التصاريف حتى على أصحاب اللسان ، ومانغب ناغب يسقطه من اللغة ، فضلاً عن الحروف التى لاتنطق فى اللغات الأخرى ، والأمثلة عليها كثيرة ، ونحن ندرك أن ثمة مستويين: أولهما تربوى يأخذ من النحو مايأخذ الآكل من الملح يقوم به الكلام والطعام ، وثانيهما شديد الضرورة للباحثين فى اللغة ، وحذفه أو تبسيطه إخلال وخلل لبنية الكلام ، ونحن نعلم أن لغتنا فى حقيقة الأمر حال واقعة لاتعسر على القراءة ، وكلمة «التراث» إذا صدقت فى لغات أخرى تغيرت كالإنجليزية والإسبانية مثلاً فترجمت إلى لغة معاصرة ، لاتصدق على لغتنا حيث هى تيار متصل ومستمر .

فرَّق الأستاذ شريف بين الإنجليز والفرنسيين والاحتلال ملة واحدة ، وما أمر دنلوب عندنا ببعيد هو ورصفاؤه من كل أمم الأرض .

ثمة مستويات أيضًا فى العربية كما فى اللغات الأخرى ، فبعض الكتاب كلامهم غسيل عار من جودة الأداء ، وفى العربية والإسبانية نماذج من هؤلاء ، وبعضهم يحفل كلامه بالإتقان والجمال - لانقصد هنا الزخارف البديعية ، وإن كان بعضها حين يحل محله يكون جميلاً فى العربية والإسبانية - وهناك الشعر قدس الأقداس فى كل اللغات ، ولانقصد أيضًا الكلمات العوصاء الغريبة ، بل إن للكلام الساذج البرئ جمالاً حين يصادف موقعه ، وكبار الكتاب الإسبان - ولانقول العرب فقط - يختال كلامهم فى نسق عال ؛ لأنه ببساطة فن جميل .

هناك بعض الملاحظات المتفرقة فى هذا الكتاب ؛ أولها ترك الإعراب لأن الكلام مفهوم ، ونحن ندرى أن مثل هذا الترك يلبس الكلام بعضه ببعض ، وربما تكون كلمة تضبط خطأ تهوى بقائلها هويًا شديدًا ، لأن الإعراب - لغة واصطلاحًا - إبانة ، تخرج المرء عن العجمة التى لاتليق به ، ونحن لانريد الإفهام فقط مع الفن بل نريد التأثير كذلك ، ولايتأتى هذا إلا بالجمال ،ومراعاة القاعدة جمال يخرج عن حد الفوضى التى هى قبح فى كل شئ .

ثانية الملاحظات - مع محاولة الإيجاز - تتعلق باجتهادات الأستاذ شريف ، وهى مردودة عليه ، أو على حماسته ، ذكر بيت المتنبى :

وكلمة فى طريق خفت أعربها فيهتدى لى فلم أقدر على اللحن .

واستشهد بكلام لأبى فهر ، وهو فى غير موضعه ، والشعر لايؤخذ بالظاهر فقط ، فالإعراب هنا هو الإظهار ، أو بالمعنى الاصطلاحى على بعد ، والشاعر يخفى نسبه ويمرّض فى الكلام ، واللحن ساكنة الحاء أو محركتها تحتمل معنى الخطأ أو التمويه ، وفى القرآن الكريم «ولتعرفنهم فى لحن القول» - راجع التفاسير، وليس من معناها الخطأ الإعرابى .

ثالثة الملاحظات تتعلق بالاشتقاق : المبالغة من البلاغة ، صحيح أن الجذر واحد، لكنما المعنى متدابر ، والمبالغة - عمومًا - من مقاصد المبدعين ومن وسائلهم يستوى فى ذلك العرب والعجم ، ومبالغة الشاعر المصور ليست مبالغة، والخطر أن الأستاذ شريف قفز إلى ظاهرة المبالغة التى ينماز بها العرب فى رأيه ، وأتى بنادرة تتعلق بأبى حية النميرى وسيفه الخشبى - كسيف العرب الآن !! - وكان يسميه لعاب المنية ، وماكان هذا السيف يحيك شيئًا ، فوجد المؤلف نهزة سانحة للسخرية من العرب ومبالغاتهم ولغتهم ، ولو أعاد كرة الطرف لوجد سيف دون كيخوتى أشد تثلمًا ، وأدعى إلى السخرية من لعاب المنية .

إن النوادر Anécdota فى كل اللغات ، وفى كلام أحمد رجب وريشة مصطفى حسين نوادر أبشع ، وأصحابها يعرفون إلى من توجه ، إنها كانت مسلسلات وأفلام القدماء الضاحكة .

ليت الثورة التى أثارها الأستاذ شريف تصلح حالنا القانط العاجز ، ولو كان سيبويه - المظلوم - هو حجر عثرة فى طريق نهضتنا لضحينا به ، شريطة أن يضمن لنا المؤلف الكريم الثائر حياة تليق بهذه الأمة ، وإن بيننا فى هذه القضية لخلافًا بعيدًا ، دون أن نهتم بالتخلف وحراسة الماضى ؛ لأننا لانجد البديل ، إلا إذا مسخت الفطرة العربية ، ودعك مما يصدرونه لنا تحت اسم التقدم والنهضة والقرية الكونية ، «إن هى إلا أسماء سميتموها» ، وللكلام بقية عن تيسير النحو لعل صاحبنا يرضى .

يحيا النحو الواضح، ويحيا سيبويه ٢-٢

نحمد للأستاذ شريف الشوباشى فى كتاب اتزانه ، وعدم دعوته لما دعا إليه بعضهم من العامية ، واطراح القواعد جملة ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، وكلها دعوات وجدت من يروج لها جهلاً وتنطعًا ، أو سوء طوية ، ولكنا إذا حمدنا هذا الاعتدال من المؤلف ، فإننا لانؤيده ثائرًا فى غير ثورة ، لأن أمورنا كلها بائرة ، وسائرة نحو الخذلان بخطى حثيثة ، ولاقيامة لهذه الأمة المترهلة إلا بأن تنشط فيها بواعث الحياة ، وأول هذه البواعث هو الإحساس بالخطر الداهم ، والشعور بالغيرة العاقلة على جوهر الأمة ولغتها .

ونحن نؤمن - بيقين - أن اللغات ترقى حين ترقى قواعدها ، ومن فضل الله على هذه الأمة أن وهبها رجالاً كانت اللغة لديهم بمثابة العقيدة ، فأخلصوا لها الإخلاص كله ، وأبدع فيها المبدعون - من خلال هذه القواعد وتسخيرها - أدبًا خالدًا ، وأدركوا أن طلاب العلم لهم مستوى حين الطلب ، وأن ثمة مستوى للراسخين، لايدابر المستوى الأول الذى يتطلع إلى درجة الرسوخ ويسعى إليها ، ولذا نجد مذكرات الطلاب فى علوم العربية ، يظنها بعض الخفاف من الدراسين مخطوطات يجب أن تحقق ، وإنْ هى إلا أوراق تحمل من القدم صفرته .

أخلص علماء العربية لقواعدها ، فذللوا عسيرها - إن كان فيها عسر - وسهلوا حزونها ، ولهم مقاصد تربوية قبل أن يدهمنا التربويون بكلام غريب ، يدلل الناشئة ، ولاينفخ فيها دواعى الجد والحياة ، هؤلاء العلماء الأجلاء رأوا أن يقدموا النحو سائغًا عذبًا ، شرع رفاعة الطهطاوى - وفى جهوده عامة لنا رأى لايتسع له المقام الآن - فى تبسيط النحو والوقوف على مسائله العامة ، والنحو - عمومًا - لايحتاج تيسيره إلا إلى صفحات قصار ، لكننا نجأر بالشكوى ، حيث لاتكلفنا شيئًا ، وجاء بعده حفنى بك ناصف ؛ فألَّف كتابًا جميلاً ، قررته نظارة المعارف على مدارسها ، وفيه جهد مشكور ، ومؤلفه شاعر بصير بالكلام .

بيد أن كتابًا صدر لعلى الجارم بك ، ومصطفى أمين بك هو النحو الواضح ، فى مجلدين ، وصاحباه خَطَوَا خطوات فسيحات شَأْتْ من تقدمهما ، وهدت من أتى بعدهما ، وقد درس المؤلفان علوم التربية ، قبل أن تكون هدفًا فى حد ذاتها، فأفادا منها إفادات جليلة ، وأولهما شاعر كبير ، يذكر فى صدارة الشعر الحديث، فنضح هذا الذوق الشعرى فى الشرح والأمثلة ، إلى جانب الدقة القاعدية لدى مصطفى بك ، وقد رأيا - وهما من أساتذة اللغة فى وزارة المعارف تدريسًا وتوجيهًا ، وأستاذية الشاعر فى دار العلوم العليا - نضر الله أيامها - أن يقدما البلاغة الواضحة إلى جانب النحو ، فاكتملت حلقات السلسلة الذهبية ، والذين درسوا الكتابين فى المدارس الابتدائية والثانوية . هم الرعيل الكريم ، الذى حفظ بيضة اللغة والأدب والبلاغة العربية .

وكان الكتابان مباركين ، وخاصة الأول ، لأننى أذكر أننى رأيت الطبعة التى بعد الستين منذ عشر سنوات ، وهو غير مقرر إلا فى بعض البلدان العربية والإسلامية ، وقد شرق الكتاب وغرب ، وشهد للمؤلفين بطول الباع . وقبل ذلك بالإخلاص الكريم لهذه اللغة ونحوها ، وصدرت منذ قليل جدًا «الطبعة الشرعية» ؛ لأن بعض الطبعات أو كثيرًا منها يبدو أنها كانت لا تعترف للمؤلف بحقوق ، حتى جاءت هذه الطبعة ، وقامت عليها الدار المصرية السعودية بعناية نجل الشاعر الكبير الدكتور أحمد الجارم ، أستاذ الطب وعضو مجمع اللغة العربية.

وبعض المتسرعين من أصحاب القشور ربما يظنون - وبعض الظن إثم - أن تسهيل النحو أو تجديده يكون باستبدال الأمثلة ، وهو وهم ساذج ، فطن إليه المؤلفان ، وذخيرتهما من اللغة والأدب شئ غريب - فجاءت الأمثلة على القواعد من نماذج الأدب العالى ، قديمًا وحديثًا ، ولعب الجارم بك دورًا عظيمًا فى نماذج الشعر التى جاءت تطبيقًا على القاعدة ، ويكاد المتلقى حين يخرج من قراءة النحو يخرج بحصاد أدبى وفير يصقل ذوقه وحسه الجمالى ، وماكان هذا بغائب عن ذهن المؤلفين .

يخدم النحو خدمة جليلة باستنباط قواعده من خلال النصوص الجيدة ،

ولكاتب هذه السطور تجربة تروى ، حين أسند إليه تدريس النحو - وليس مادة تخصصه - ففزع إلى ديوان المتنبى قراءة نحوية مع طلابه ، وكانت تجربة وددت لو كررتها .

ثم جاءت كتب أخرى فى تيسير النحو دون الإخلال بقواعده ، نذكر منها النحو الوظيفى للمرحوم عبدالعليم إبراهيم ، عميد تفتيش اللغة العربية فى الوزارة سابقًا ، وكتاب «النحو المصفى» للعالم الأديب الدكتور محمد عيد ، وتسرى هذه الكتب ونظائرها بين القراء وطلاب العربية وغيرها من رجال الصحافة والإعلام .

غير أن طبعة النحو الواضح الأخيرة حرَّفها بعض الناشرين ممن يركبون الموجات السياسية فأتوا ببعض الأمثلة عن مصر جمهورية ، والإقليم الشمالى ، وما أدرك المؤلفان هذا العهد حيث رحلا قبله ، وربما كان من الواجب تدارك هذا النفاق والجهل المتلبس بالنفاق ، ولعل هذا النحو الواضح دون خلل وإخلال يثلج صدر صاحبنا الشوباشى ، دون أن نطمع فى أن يهتف معنا دائمًا : عاش سيبويه ، لأن كتابه يُحيِّى سيبويه رغمًا عنه .

التدوير فى الشعر

من العبارات الشائعة : أن العروض علم نضج حتى احترق . ومايناسب للجاحظ أن العروض علم غث مستبرد وهى كلمات قرت فى أذهان الناس وخطرها شديد إذ يصدق غير الدارسين عن هذا العلم ، ويجعل الدارسين يقفون جامدين عندما وصل إليهم . وكأن الأول ماترك للآخر شيئًا !!

إلا أن كتابًا جيدًا صدر أخيراً للدكتور أحمد كشك عن بعض ظواهر هذا العلم، يجعل القارئ يؤمن بنقيض العبارات الشائعة . ويدرك أن لهذا العلم خصوصية لابد من تميز الباحث فيه بها . وهى الموهبة الفطرية للمح النغم قبل لمح القاعدة ، وهو مانعتقد أن أحمد كشك يحظى منه بقسط وفير . فهو رجل كان يعالج النظم قديمًا ، وتمرس معه بالدرس الجامعى المنظم ، فاستقام الذوق والدرس. ولعل الكتاب بعنوانه يشى بالمجالات التى طرقها مابين النحو أى التراكيب ، والخطأ . ومابين الدلالة التى ينطق بها النظام النحوى . ومايوشح ذلك كله من إيقاع هو حد الشعر . وربما كان من الواجب أن نعرف التدوير فى الشعر ، وهو بإيجاز شديد : اشتراك كلمة بين الشطر الأول والشطر الثانى فى بيت واحد . وقد حاول المؤلف فى يقظة أن يرى ظواهر تعدد إرهاصات للتدوير كالتضمين والبند ، مناقشا فى حجة واضحة ماورد لدى نازك الملائكة وعبدالكريم الدجيلى عن أولية البند واعتباره أساسًا للشعر الحر .

وهو حسب مافهمنا من كلامه ، لايكاد يؤمن بأن التفعيلة تمثل وحدة نغمية وهى أساس الشعر الحر ، وكلامه هذا صحيح لأن النغم لايكون إلا بتركيب التفاعيل . وهى نظام الشعر الموزون المقفى .

يقول : «فالإيقاع التفعيلى ينفى مطلب البحر والوزن» وكم وددت لو أفاض أحمد كشك فى شرح هذه القضية ؛ خاصة أنها مطروحة على الساحة النقدية ، وله خبرة عميقة بدراستها . مسألة الشعر العمودى وردت مرات متعددة فى

مواجهة الشعر الحر . ولعل المؤلف فى هذا الاستخدام يشايع مصطلحًا شائعًا ؛ وخاصة حين يناقش مسألة البند ، وهو اصطلاح فيه كثير من التجوز ، لأن الشعر العمودى لايعنى الشعر الخليلى ، والوزن والقافية ليسا من عمود الشعر ، كما قال المرزوقى فى مقدمة شرح الحماسة .

والكتاب لأهميته لايقف عنده الدارسون فحسب ، بل هو بما حواه من نماذج شعرية - منذ الجاهلية حتى الآن - يجعله قريبًا من القارئ المتطلع الذى يبذل جهدًا؛ ليدرك أن العروض نضج لدى المؤلف فصار سائغًا ، ولم تحترق إلا الدعاوى الظالمة ، التى يثيرها العجزة والمتبطلون.